العراق في رحلة عبد اللّه بن الصباح المدجن الاندلسي في القرن الثامن الهجري/السادس عشر الميلادي

دراسة في الحياة العلمية والدينية

Iraq in the Journey of Abdullah bin Al-Sabah Al-Mudajjin the Andalusian in the Eighth Century AH. /Sixteenth CentuvyAD Study in Religious and Scientific life

م.م سلام ناصر والي العظيمي

وزارة التربية– المديرية العامة لتربية واسط

Aludaimi Assit. Lecturer. Salam Nasir Wali

salamaladami@gmail.com

الملخص

تناولت الدراسة موضوع "العراق في رحلة عبدالله بن الصباح المدجن الاندلسي في القرن الثامن الهجري_ دراسة في الحياة العلمية والدينية" التي دونها في كتاب اسماه "نسبة الاخبار وتذكرة الاخيار" من خلال رحلته الى العراق في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري، وقد حاول الباحث من خلال قراءتهِ للرحلة الوقوف على بعض الصور العلمية والدينية للعراق، لا سيما ان المدة موضوع البحث لازالت بحاجة الى دراسات تاريخية تبين طبيعة وضع العراق العلمي والديني بعد السنوات التي قضاها في تعاقب الدويلات المتعددة في احتلالهِ، لذلك جاءت رحلة ابن الصباح من الأهمية بعدما نقل مشاهداته ومعلوماته التاريخية عن العراق ومدنه المختلفة على أثر مكوثه فيه لسنوات متعددة عاش خلالها الحياة اليومية للعراقيين وما فيها من من احداث عامة استقى بعضها من كتب التواريخ القديمة، واخرى من خلال مشاهداته في اثناء وجوده بالعراق، فضلا عن المعلومات العلمية والدينية التي عاشها الرحالة في المدن العراقية.

الكلمات المفتاحية: العراق، المدجن، رحلة، نسبة الاخبار، بغداد

Abstract

The study dealt with the subject of “Iraq in the journey of Abdullah bin Al-Sabah Al-Mudajjin the Andalusian in the eighth century AH - a study in the scientific and religious life,” which he wrote in a book called “The News tellers and the memory of the Good Ones” during his trip to Iraq in the second half of the eighth century AH. The researcher, however, tried during his reading of the trip, to find some scientific and religious pictures of Iraq, especially since the period in question still needs historical studies that show the nature of Iraq’s scientific and religious situation after the years he spent in the succession of multiple states in its occupation. That is where we see the importance after what is said and carried out through history and the historical period of Iraq and its various cities, following his stay there for several years, during which he lived the daily life of the Iraqis and its events

المقدمة

اكتسبت رحلة ابن الصباح المدجن الاندلسي الموسومة "**نسبة الاخبار وتذكرة الاخيار**" اهميتها من خلال المدة التاريخية في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/السادس عشر الميلادي التي شهد فيها العراق فترة شبه مظلمة من تاريخه العلمي الديني على اثر تعاقب احتلاله من قبل الدويلات المغولية المتمثلة بالدولة الايلخانية(٦٥٦-٧٣٦هـ/١٢٥٨-١٣٣٦م)، ومن ثم الدولة الجلائرية(٧٣٨-٨١٤هـ/١٣٣٨-١٤١١م)، وما صادف ذلك من صراعات سياسية داخلية وخارجية اثرت بشكل ما على الاوضاع العامة لاسيما الحياة العلمية والدينية في العراق، اذ انتقل مركز الخلافة العباسية الى مصر تحت رعاية الدولة المملوكية، لذا كانت المعلومات عن العراق قليلة في اثناء هذه المدة قياساً بالعصور السابقة التي كانت فيها بغداد تتصدر المشهد السياسي والعلمي والديني آنذاك، لذا جاءت رحلة ابن الصباح الى العراق في القرن الثامن الهجري/القرن

السادس عشر الميلادي لتعرض لنا بعض الصور المهمة عن الحياة العامة في العراق التي ارتأينا ان تكون لنا وقفة مع رواياته عن الحياة العلمية والدينية ومناقشتها وبيان اهميتها وعرض صورة واضحة عنها خلال مدة البحث.

قسمت هذه المحاولة البحثية على ثلاث مباحث خصص المبحث الاول فيها للتعريف بسيرة الرحالة عبدالله بن الصباح الاندلسي وبيان منهجه في سرد روايات الحياة العلمية والدينية في العراق، وجاء المبحث الثاني ليتناول الحياة العلمية في رحلة ابن الصباح الاندلسي، اما المبحث الثالث فتم فيه التطرق الى الحياة الدينية في العراق من خلال رحلة ابن الصباح الاندلسي، ثم بيان اهم الاستنتاجات التي توصل لها البحث، بعد الاستعانة ببعض المصادر والمراجع المهمة التي تصدرها كتاب رحلة ابن الصباح المسماة نسبة الاخبار وتذكرة الاخيار.

المبحث الاول

نبذة عن حياة الرحالة ابن الصباح ومنهجه وموارده في رواية الحياة العلمية والدينية في العراق

اولاً: حياته

لم ينظر كُتاب التراجم والمؤرخين باهتمام بالغ الى سيرة الرحالة الاندلسي عبدالله بن الصباح المدجن؛ ولعل ذلك راجع الى بساطة حياته بوصفة من عامة الناس، اذ لم تكن له شهرة علمية اعتمدتها المصنفات الادبية او لدية الشهرة الدينية التي كانت لها شأن خاص في الحياة اليومية في المدن الاسلامية، كما يمكن النظر الى المدة التي عاش فيها الرحالة خلال القرن الثامن الهجري/ القرن السادس الميلادي التي صادفت حكم دولة بني الاحمر(٦٢٩-٨٩٧هـ/١٢٣٢-١٤٩٢م) في الاندلس، اذ اتسمت هذه الحقبة في بعض سنواتها بضعف الحركة العلمية في تلك الديار، لاسيما اذا عرفنا ان المدن الاندلسية تعرضت للسقوط والتخريب والخطر على يد الممالك النصرانية خلال هذه المدة[١]؛ مما أثر سلباً على النشاط العلمي فيها، وما يدلل على ارجحية قولنا وصف الرحالة نفسه واقع بلاده بقوله: "**ان بلادنا المدجنة من عمائر الاندلس لا فيهم شيخ تعلم من شيخ الا من النسخ والكتب وهي صم بكم** ..."[٢]، لكن على الرغم من ذلك يمكن الوقوف على بعض الشذرات من حياته من خلال رحلته الموسومة: "**نسبة الاخبار وتذكرة الاخيار**" اذ هو من مواليد مدينة شاطبة[٣] الاندلسية التي كانت قريبة جدا الى فكره وقلبه لاسيما عندما نراه يتغزل بها ويفضلها على بعض المدن التي زارها في اثناء رحلته لمناعتها وجمالها وكبر ارضها[٤]، وهذا ما ذهب له احد الباحثين ايضا بإرجاع ولادة ابن الصباح الى تلك المدينة التي ترعرع وعاش فيها، فضلا

عن تنقله بين مدن الاندلس الاخرى رغبةً في الترحال والاطلاع[٥]، ويرجع نسبه الى القبائل اليمنية وتحديداً الى قبيلة حمير التي كانت محط اعتزازه وفخره من خلال رحلته لاسيما اذا علمنا ان اغلب ابناءها قطنوا مدينة شاطبة[٦].

اما رحلته الى جهة المغرب والمشرق الاسلامي في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/السادس عشر الميلادي[٧] فقد تزامنت مع وجود دولة بني الاحمر(٦٢٩-٨٩٧هـ/١٢٣٢-١٤٩٢م) في الاندلس، التي ارتحل منها ماراً بالمدن المغربية مثل سبتة[٨]، وفاس[٩]، ومراكش[١٠] في اثناء حكم الدولة المرينية(٦٦٨-٨٦٩هـ/١٢٧٠-١٤٦٥م)، ثم وصل الى مدينة تلمسان[١١] ايام حكم الدولة الزيانية(٦٣٣-٩٦٢هـ/١٢٣٦-١٥٥٥م)، والى تونس ايام الدولة الحفصية(٦٢٧-٩٨١هـ/١٢٣٠-١٥٧٣م)، ثم رحل الى مصر اواخر حكم المماليك(٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)[١٢]، بعدها واصل رحلته الى الحجاز والعراق في اثناء وجود الدولة الجلائرية(٧٣٨-٨١٤هـ/١٣٣٨-١٤١١م).

ويبدو انه كتب مدونته بعد رجوعه من رحلته المشرقية بفترة طويلة معولاً على ذاكرته وحفظه لأحداث تلك الرحلة سيما وانه قد اشار بكتابتها وهو في عمر الستين الى السبعين بعد ان ضعف بصره واشتدت عليه مصاعب الحياة[١٣]، ويبدو ان المخطوط الاصلي للرحلة قد ناله الضياع ولم يبقى منها سوى ما عمل عليه النساخ او ربما ترك ابن الصباح مخطوطة رحلته ليتولى كتابتها من بعده أحد المدجنين الموريسكيون في الاندلس اذ يمكن الاستدلال على ذلك من خلال ما يردده ناسخ الرحلة بقوله:" **قال المؤلف رحمه الله**"[١٤].

ثانياً: منهجه

غلب على رحلة ابن الصباح المنهج الوصفي في عرض صورة العراق العلمية والدينية ، فكان اسلوبه سلساً بعيداً عن التكلف في اكثر رواياته، مع الاختصار في نقل اغلب مشاهداته رافقها ضعف الدقة والموضوعية في مواضع كثيرة من صورهِ التي افتقدت الى السمة النقدية والتحليلية في منهجه؛ ولعل ذلك راجع الى اعتماده على ذاكرته وما حفظ من احداث في اثناء مطالعاته للتواريخ والكتب، لاسيما انه في مواضع متعددة حاول اتباع المنهج المقارن بين ما وجدهُ من صور تاريخية عن المدن العراقية، وما شاهده وعاشه في المدن المغربية والاندلسية[١٥].

كما اتبع الرحالة المرور السريع من خلال ذكر الحلقات المترابطة بين منطقة وأخرى فقط الا ما ندر، ولعل ذلك راجع الى اعتماده على الذاكرة في تدوين رحلته، ومع ذلك فهو ترك لنا معلومات قيمة لا يمكن تجاهلها،

سيما وان تاريخ العراق في القرن الثامن الهجري/السادس عشر الميلادي افتقر الى كثير من المعلومات التاريخية بسبب تعاقب الدويلات المغولية في احتلاله ودوام الصراع على مدنهِ مع عدم الاستقرار السياسي فيه.

ثالثاً: موارده

صرح الرحالة مذ بداية ولوجه بكتابة رحلته انه دونها بطريقتين الاولى منها تضمنت ما أملته عليه الذاكرة وما حفظ خلال رحلته للبلدان التي زارها اذ قال: "**ان كل ما كتبناه وسطرناه كله من صدرنا ودماغنا**"(١٦)، وهذا ما يدعونا الى الاعتقاد انه كتبها في وقت متأخر لاسيما انه ذكر في موضع اخر في نهاية كتابة رحلته ان مدون هذه الكتاب شيخ كبير تراوح عمره بين الستين والسبعين سنه، وهو يشكو من ضعف البصر حتى استعان بآلة مكبره للكتابة في تدوين معلوماته(١٧).

اما مورده الأخر الذي شكل المصدر الثاني من معلوماته بحسب قوله فهو ما تركه له المشايخ والكتب والتواريخ التي حفظها على ظهر قلب وثبتها في رأسه، لذا هو يستميح القارئ والسامع العذر فيما لو وجد خللاً في ترتيب الكلام او المغالطة في نطق وتسمية الحروف والكلمات؛ بسبب طول المدة بينه وبين مطالعاته لتلك المعلومات التي خزنها في ذاكرته، لاسيما ان الروايات التي تطرق بها الى التاريخ القديم هي:" **تواريخ الاولين ووقائع البلاد وملوك التبابعة وملوك العرب والعجم واليونانين وغيرهم من ذرية نوح**"(١٨)، ويبدو ان كل المعلومات التاريخية القديمة التي ذكرها جاءت بمعونة ما حفظه بهذا الاتجاه، اذ نجدها في بعض الاحيان تحتوي على بعض المغالطات لاسيما ما يخص تاريخ العراق القديم(١٩).

المبحث الثاني

الحياة العلمية في العراق من خلال رحلة ابن الصباح الاندلسي

تضمنت رحلة ابن الصباح بعض المعلومات المهمة عن الحياة العلمية والثقافية في العراق وكانت بغداد هي المتصدرة لتلك المعلومات التي رواها الرحالة بوصفها القطب في ادارة العراق في اثناء زيارته، وتأتي ملاحظاته المهمة في هذا الجانب قياساً الى ما تركه في مسقط رأسه الاندلس من ثقافة عامة لاسيما فيما يخص اللغة واللهجة الاندلسية في أيامه، التي وقعت تحت تأثير البيئة والعناصر الاندلسية متنوعة الاجناس، اذ وصف لسان العامة من أهل الاندلس بانهم "**يغلظون مواضع الترقيق ويرققون مواضع التغليظ في كثير من الكلام**"(٢٠)، وهو يرى ان ذلك لا يفهمه الا اهل النحو والعربية، وبناءً على هذا رأى ان أهل العراق من افصح البلاد الاسلامية الى جانب مكة واليمن والشام، وقد اعاد فصاحة اللسان لدى العراقيين الى طبيعة الارض والهواء والماء الذي غلب على طباع الانسان(٢١)، وهو

بذلك يميل الى التفسير الجغرافي للتاريخ الذي ذهب الى التفسير القائل بقدرة العوامل الجغرافية من انهار وامطار ومناخ وتربة وجبال وما شابه ذلك على أثرها في تغيير مجرى التاريخ الانساني، ونقل حضارته من مكان الى أخر، وهو رأي تعود جذوره الى بعض علماء اليونان والرومان من امثال ارسطو وابو قراط وسترابو[٢٢].

ومن صفة الفصاحة عند أهل العراق انتقل الرحالة المدجن الى بغداد تحديداً ليعلن ان فيها خمس وعشرون مدرسة للعلم والعلماء والدرس والقراءة، ومنها مدرسة الخلفاء العباسيين وهي المدرسة المستنصرية الذي تولى بناءها الخليفة العباسي المستنصر بالله(٦٢٣-٦٤٠هـ/١٢٢٦-١٢٤٢م)، واخوه المستعصم بالله(٦٤٠-٦٥٦هـ/١٢٤٢-١٢٥٨م)، اذ وصفها انها مبنية على شاطئ نهر دجلة تضم مائة وعشرون مسكنا في الاعلى والاسفل وشبابيك تطل على ماء النهر وجسري بغداد، تمر بجوارها القوارب ذهاباً وإيابا منها للمتفرجين واخرى تحمل الارزاق الى بغداد من جميع البلاد، يعمل بها سبعة فراشين ونقباء، بابها من حديد يقابله ساعة المدرسة وهي على شكل وزّ تدق بصوت عال كالرعد القاصف، اذ كلما جاءت ساعة خرج من فم الوزّ كرة نحاسية تقع في طاس من نحاس ايضاً، فتخرج صوت يسمعه جميع المارة، ويعرف السامع لها كم مضى من النهار[٢٣]، وعلى الرغم في مبالغة الرحالة في وصف صورة المدرسة المستنصرية الا انه دليل على مكانتها في العالم الاسلامي وشهرتها في الآفاق وسعة مخرجاتها العلمية.

وقد أكد الرحالة ان هذه المدرسة أهتمت بالتدريس على المذاهب الاربعة(الحنفي، والمالكي، والشافعي، والحنبلي)، وهو يرجع هذا الامر الى الصراع الديني بين الملل والطوائف التي تدعي كل منها انها على الدين النبوي الصحيح من دون الطوائف الاخرى[٢٤]، اذ اشار ان المدرسة لا يدخلها رافضي ولا خارجي سوى أهل السنة، مما جعل الرافضة يمرون بجوارها ويدعون عليها لما في قلوبهم من قهر تجاهها[٢٥]، مما دعا الخليفة المستنصر بالله، واخوه المستعصم بالله الى دعوة جميع هذه الطوائف من أهل السنة والخوارج والشيعة والروافض وجميع علماء الامصار الى عقد المناظرة فيها بين يد الخلفاء ببغداد ومن يتخلف عن ذلك تضرب عنقه، وبعد مناظرة طويلة اختصمت بها تلك الشيع غلب أهل السنة باقي الطوائف الاخرى، اما من تمادى او نطق بالباطل من تلك الطوائف بعد غلبة أهل السنة في جولة المناظرة اصدر بهم الخلفاء امراً بقطع رؤوسهم وتمزيق كتبهم ورميها في نهر دجلة[٢٦].

وقد اشار ابن الصباح ان هذه المعلومات حدثهُ بها أئمة المدرسة المستنصرية نقلاً عن اباؤهم بأن ما يقارب الف حمل من كتب وتصانيف الشيعة، مع قطع رؤوس الف عالم منهم رميت جميعاً في نهر دجلة، وانتهى أمر الخلفاء باتباع المذاهب الاربعة، وبذلك انعقدت دروس المدرسة على تدريس هذه المذاهب[٢٧]، وعلى الرغم من الرأي القائل ان المستنصرية كان تأسيسها امتداد لفكرة تأسيس المدرسة النظامية والمدارس الاخرى التي تبنت مقاومة الدعوة الشيعية وتخريج عدد من المثقفين فقهياً بهذه المذاهب مع ضرورة الايمان بنظام الدولة السائد آنذاك[٢٨]، الا ان استبعاد المذهب الشيعي من المدرسة المستنصرية عائد الى طبيعة هذا المذهب ودراساته الفقهية البعيدة عن رغبات الحكام وسلطتهم، واستقلال مركزهم الدراسي والفكري في مدينة الحلة[٢٩].

وبهذا لا يمكن الركون الى رواية الأمر بقطع الرؤوس وتمزيق كتب الطوائف الاخرى ورميها في نهر دجلة التي نقلها الرحالة ابن الصباح، اذ يبدو ان لديه خلط تاريخي بين كثرة كتب المستنصرية منذ تأسيسها، وبين الروايات التي تحدثت عن رمي الكتب في نهر دجلة عشية سقوط بغداد سنة(٦٥٦هـ/١٢٥٨م) وقتل الالاف منها على يد المغول، اذ اشار الى ذلك معاصره المؤرخ المغربي ابن خلدون(ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م) بقوله:" **ان الذي أحصى ذلك اليوم من القتلى ألف ألف وستمائة ألف واستولوا من قصور الخلافة وذخائرها على ما لا يبلغه الوصف ولا يحصره الضبط والعد وألقيت كتب العلم التي كانت بخزائنهم جميعها في دجلة**"[٣٠]، وقد انبرى احد الباحثين الى التحقيق في مصداقية تلك الروايات وتوصل الى دحض صحتها لاسيما ان رواتها من المتأخرين تاريخيا عن تلك الحادثة[٣١].

اما الخوارج الذين اشركهم ابن الصباح مع الشيعة في صراعهم مع أهل السنة اواخر العصر العباسي فلم نجد في المصادر التي بين ايدينا ذكر لوجودهم في بغداد خلال القرن السابع الهجري أيام تأسيس المدرسة المستنصرية، بل كان هناك بروز للاتجاه الصوفي والسلفي خلال هذه المدة في بغداد[٣٢].

كما اشار ابن الصباح في اثناء وجوده ببغداد ان الحديث النبوي يدرس بها يومان في الاسبوع، ففي يوم الخميس يكون هناك درس للحديث في الجانب الشرقي من بغداد، اما في يوم الاثنين فيدرس في الجانب الغربي منها، وقد اشار الى أثر تلك الدروس الدينية على أهالي مدينة بغداد، اذ وجد الرجال والنساء والاولاد والبنات، حافظين للحديث النبوي على ظهر قلب من كثرة التلقين والسماع والترديد لها[٣٣]، وتُكثف مثل تلك

الدروس في بغداد أيام شهر رمضان، اذ يبدأ شيوخ الدين والمؤرخون في قراءة كتاب البخاري ومسلم من بعد صلاة الظهر وحتى صلاة العصر، يجتهدون ويصححون في المسائل الدينية والسنة النبوية[٣٤]، وهو بذلك اشاد بفصاحة لسان أهل بغداد وعدّهم افصح العرب، فهم أهل السنة والمذهب والعقول والألباب، وبهذا فان صورة سكانها لديه انهم خير العباد، لتربة مدينتهم التي تضم الصحابة والصالحين والتابعين، فيها مشايخ الصوفية والمرابطين، فهم يحرثون بالنهار، ويقرؤون ويجتهدون بالليل[٣٥]. وعندما أنتقل الرحالة الى مدينة واسط التي نسبها الى مؤسسها الحجاج بن يوسف الثقفي الذي حكم العراق(٧٥-٩٥هـ/٦٩٤-٧١٤م)، اذ أشار انها من مدن العراق المشهورة الى جانب البصرة والكوفة[٣٦]، ثم تطرق الى وجود قبر التابعي سعيد بن جبير(ت٩٥هـ/٧١٤م) فيها، بعد ان حدد موقعها على نهر دجلة، والمسافة بينها وبين مدينة بغداد من جهة الشرق خمسة أيام، وهي مدينة كثيرة النخل والعمارة، أهلها جميعهم من الرجال والنساء يقرأون القران[٣٧]، ولعل ذلك راجع الى بروز مدينة واسط وشهرتها بقراءة القرآن وتجويده ودراسته وتعليمه، فضلاً عن اهتمامها بالحديث وسماعه، لاسيما في العصر العباسي الأخير الذي شهدت واسط من خلاله فترة الهدوء والاستقرار السياسي[٣٨]، لكن بالوقت نفسه نجد الرحالة ابن الصباح جذر لهذا الاهتمام الفكري في حفظ القرآن الكريم وتعليمه في مدينة واسط، اذ أشار ان الحجاج بن يوسف الثقفي مؤسس المدينة عمل على جعل سكانها من الرجال والنساء يحفظون القرآن على ظهر قلب بعد ان أجرى عليهم الكسوة والنفقة مدة سبع سنوات، وكان الهدف من ذلك الرغبة في نيل الأجر على حفظ القرآن الكريم، وتفريق هؤلاء على الاقاليم الاسلامية ليعملوا على تحفيظ الناس وتعليمهم للقرآن، بعد ان يتكفل بجميع نفقاتهم وكسوتهم[٣٩].

وعند مدينة البصرة وقف ابن الصباح ليذكر وجود جامع الامام علي بن ابي طالب(عليه السلام) فيها، مبدئاً وصف أهلها بأنهم عرب من أهل السنة والنحو، وعلم العربية والتصريف الفصيح والعجيب، فهم يجيدون قراءة القرآن ولغته، أصحاب صلاة، ومعروف واجتهاد في الدين، فيهم أهل العلم ومشايخه، فضلاً عن علماء الفلك والنجوم[٤٠]، ويبدو ان هذا المواقف والصور التي عرضها الرحالة ابن الصباح عن الحياة العلمية في المدن العراقية آنذاك جاءت بخطوط عريضة خالية من التفاصيل المهمة، اذ لا يوجد فيها ذكر للمكتبات والتصانيف العلمية او ذكر العلماء؛ ولعل هذا راجع الى طبيعة حياة الرحالة نفسه التي اتصفت بالبساطة وعدم الرغبة في متابعة العلماء والفقهاء واللقاء

بهم؛ لكن يمكن القول ان الجانب الفكري للعراق الذي رواه الرحالة اعتمد فيه بالدرجة الاولى على معلوماته التاريخية التي استقاها من المصادر، فضلاً عن بعض مشاهداته واستنتاجاته التي لمسها من خلال وجوده في تلك المدن العراقية، وهي معلومات مهمة تعكس عافية التعليم في العراق خلال هذه المدة لاسيما في تدريس علوم القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.

المبحث الثالث

الحياة الدينية في العراق من خلال رحلة عبدالله بن الصباح الاندلسي

جاءت صورة الحياة الدينية للعراق في رحلة ابن الصباح الاندلسي انعكاساً للمشاهدات التي صادفته وهو يستحث الخطى في طريقه الى العراق، ومنها ما وقف عليه في المدن العراقية، اذ رصد الرحالة كثير من الصور الدينية المهمة للمجتمع العراقي التي يمكن اضافتها الى تاريخ العراق خلال النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/القرن السادس عشر الميلادي، اذ وصف الرحالة العراق انه موطن وبلد الاولياء الاول[٤١]، محدداً موقعه الجغرافي بوقوعه في الاقليم الثالث، سكانه من العجم والعرب، فالعجم بأجمعهم على مذهب الشافعية، اما العرب فمنهم على مذهب ابي حنيفة، وبعضهم على مذهب ابن حنبل، واشتهر أهل البصرة بنسبة كبيرة على مذهب الشافعي، فهم يقضون أيام شهر رمضان بصلاة الشفع والوتر[٤٢]، وأهل العراق يتبعون قراءة اهل الكوفة التي اشتهرت بكثرة قراءها ورجالها في تلاوة القرآن الكريم وحفظه[٤٣].

وفي هذا الجانب وجد ابن الصباح عند وصوله الى ديار بكر قوم من الاكراد يقرؤون القرآن الكريم وهو مكتوب على ورق رقّ غزال، طول كل ورقة منه ذراع وحروف المصحف بعرض الاصبع، اما حرفي الكاف والصاد يبلغان شبر تقريباً، وهو يتألف من ثلاث مائة وستون ورقة على عدد أيام السنة، يقرؤون في كل يوم منه ورقة واحدة لمدة عام كامل لكل من يحضر الى صلاة الصبح، ترتيلاً وتفسيراً لجميع مواضع الوعظ والوعد والوعيد في القرآن الكريم[٤٤].

اما ركب الحج العراقي فقد أشار الى كثرة القوافل القادمة من العراق الى مكة المكرمة لأداء مناسك الحج خلال وجودهِ هناك، وهو يصل عادة في يوم التروية عند الطلوع الى منى، اذ يُعد اخر ركب للحجيج يصل الى مكة لاستمرارها بلا انقطاع مدة اسبوع كامل[٤٥].

كما اشار ابن الصباح وهو في بيت المقدس بعد ان جاوره مدة اربع سنوات ان لبعض العراقيين عادة أخرى يقتدون بها لاسيما من لا يقدرون على حج بيت الله الحرام في مكة، اذ يتوجهون الى بيت المقدس ويجاورونه هناك من شهر رجب الى نهاية شهر

رمضان حتى يأتي يوم وقوف الحجيج على جبل عرفة، اذ يجتمع في هذا اليوم أهل بيت المقدس والمجاورين من العراقيين وغيرهم ويقفون سوية على قبة الصخرة، وهي القبلة المنسوخة يضعوها بين ايديهم ويتوجهون الى الكعبة ثم يبتهلون بالدعاء والتضرع وكأنهم على جبل عرفة[٤٦]، وهذهِ الطقوس الدينية التي يؤدونها على قبة الصخرة فسرها علماء بيت المقدس والشام بانها حج الضعفاء والمساكين الذين لا يستطيعون تحمل مشاق طريق الحج الى مكة، لذا فهم يجاورن بيت المقدس ويصومون شهر رمضان هناك ويعدون ذلك بمثابة حج لهم، ودليلهم في قبول هذه الفريضة في المكان تحديداً هو ما جاء على لسان الخليفة عمر بن الخطاب(ﷺ) ان الحج الى بيت المقدس المطهر هو حج مجاورة لكونها من افضل بقاع الارض[٤٧]، ويبدو ان الرحالة بالغ في نسبة تلك المقولة الى الخليفة عمر بن الخطاب(ﷺ) اذ ان الاخير على الرغم من فتحه لبيت المقدس واعتزاه به الا انه لم يجعل له المكانة التي يألفها المسلمون في الكعبة المشرفة بل جعلها في بعض المواضع بمثابة العمرة[٤٨].

وعند معرض حديثه عن الديانات الاخرى اشار المدجن ان كثير من أحبار اليهود ورهبان النصارى في العراق استفهموا منه عن الكعبة كيف يصلون لها في اربعين يوم؟، ثم يرجعون الى ديارهم في مختلف البلدان، فأجابهم المدجن بان ذلك مثل رؤية العين، فتعجب الراهب من ذلك وتوقع انهم يطيرون بعد ان خر مغشياً عليه، ثم افاق فدعا له ابن الصباح بدعاء قال فيه: "**اللهم أمته على خير الاديان يا الله**"[٤٩] وبذلك يمكن القول انه على الرغم من المعلومات المقتضبة التي تركها لنا الرحالة ابن الصباح الا اننا نجده اختارها بعناية ودقة لاسيما بعض الطقوس الدينية، والتوزيع المذهبي والديني للمجتمع العراقي الذي ركز فيه على من يعتنقون المذهب الشافعي لاسيما اهالي مدينة البصرة والمذهب الحنبلي في بغداد، فضلا عن التوزيع السكاني للديانات الاخرى من اليهود والنصارى في بغداد الذين عكس وجودهم حياة التعايش السلمي والديني في العراق لاسيما قضية الحوار الحضاري التي نقلها الرحالة بينهم وبين المسلمين، كما يمكن ملاحظة الطقوس التي اتبعتها فئة من ابناء المجتمع العراقي في طقوس تأدية فريضة الحج في بيت المقدس التي وصفها الرحالة بان من يقومان بذلك هم من الفقراء والضعفاء والمساكين غير القادرين على تحمل مشاق طريق الحج وتبعاته المالية.

<u>الاستنتاجات</u>

– تبين ان المعلومات العلمية والدينية التي دونها الرحالة في اثناء رحلته الى العراق اتبع فيها المنهج الوصفي والمقارن، وقد جاءت

من الاهمية في بيان طبيعة المجتمع العراقي العلمية والدينية، اذ يبدو ان الاهتمام كان بالدرجة الاولى يرتكز على تحفيظ العلوم القرآن الكريم والاطلاع على الكتب الحديثية من امثال صحيح البخاري ومسلم وهي عادة متبعة على ما يبدو منذ العصور السابقة.

– ان المعلومات العلمية والدينية التي نقلها الرحالة جاءت اغلبها على شكل خطوط عريضة لكنها اتصفت بالدقة والاهمية، عكست الجانب الفكري للمجتمع العراقي آنذاك لاسيما انها ضمت مدن متعددة من العراق مثل بغداد وواسط والبصرة والكوفة مما يعكس عافية التعليم والطقوس الدينية في العراق خلال القرن الثامن الهجري/السادس الميلادي على الرغم من الارباك وعدم الاستقرار السياسي الذي شهده العراق خلال هذه المدة على أثر تعاقب الدويلات المغولية المحتلة له.

– تبين من خلال روايات الرحالة ان ركب الحج العراقي لازال يحتل المرتبة الاولى من بين ركب الحج للأقاليم الاسلامية الاخرى وثبات مكانته منذ العهود الاولى له، وهذا يدلل على انتعاش الحياة الدينية بوصف العراق مركز الانطلاق الاول لركب الحجيج لمدن الشرق الاسلامي وهو ما أكد عليه الرحالة في بيان طبيعة الطقوس الدينية، وتأدية فريضة الحج في العراق في القرن الثامن الهجري/السادس الميلادي.

– أكد ابن الصباح على طبيعة التوزيع المذهبي والديني في العراق في كافة المدن العراقية مما عكس طبيعة التعايش السلمي بين المذاهب الدينية، فضلاً عن وجود الديانات الاخرى من اليهود والنصارى وقضية الحوار الحضاري التي نقلها الرحالة بينهم وبين المسلمين.

الهوامش:

(١)ينظر: عنان، دولة الاسلام في الاندلس، ج١/ص٦٧٧.

(٢) ابن الصباح، نسبة الاخبار، ص٢٤٩ .

(٣)شاطبة مدينة اندلسية حصينة لها قصبتان ممتنعتان احاط بها الواد قريبة من جزيرة شقر طيبة الهواء كثيرة الاثمار آهلة بالسكان ذات اسواق وفنادق. ينظر: الحميري، الروض المعطار، ج١/ص٣٣٧.

(٤) المصدر نفسه، ص١٤٣ .

(٥) مصطفى، رحلة المدجن عبدالله بن الصباح دراسة مقارنة، ص١٧٦ –١٧٧.

(٦) ينظر: ابن الصباح نسبة الاخبار، ص٥–٧.

(٧) شيخة، مقدمة تحقيق نسبة الاخبار، ص ش.

(٨)مدينة عظيمة على الخليج الرومي المعروف بالزقاق، وهي تقابل الجزيرة الخضراء. ينظر: الحميري، الروض المعطار، ج١/ص٣٠٣.

(٩)مدينة فاس تُعد قاعدة المغرب وقطب بلاد المغرب الأقصى ويسكن حولها قبائل من البربر. ينظر: الحميري، الروض المعطار، ج١/ص٤٣٤.

(١٠)مدينة تقع شمال أغمات على اثني عشر ميلاً منها بداخل المغرب، بناها يوسف بن تاشفين في صدر سنة(٤٧٠هـ)، حتى اصبحت من أكبر مدن المغرب الأقصى، وعظمت تجارتها وتنافس الناس في البناء فيها، ينظر: الحميري، الروض المعطار، ج١/ص٥٤١.

(١١)مدينة تقع أول بلاد المغرب، وهي على طريق الداخل والخارج منه في أول الصحراء وهي على الطريق إلى سجلماسة ووارکلان وغيرهما من بلاد الصحراء. ينظر: الحميري، الروض المعطار، ج١/ص١٣٥.

(١٢)التازي، رحلة الرحلات مكة في مائة رحلة مغربية، ج١/ص١٦٥

(١٣) أبن الصباح، نسبة الاخبار، ص٢٤٩.

(١٤) ينظر: أبن الصباح، نسبة الاخبار، ص٩–١٥.

(١٥) ينظر: نسبة الاخبار، ص٤١ .

(١٦) المصدر نفسه، ص٣٠.

(١٧) المصدر نفسه، ص٢٤٩.

(١٨) المصدر نفسه، ص٣٠ .

(١٩) ينظر: المصدر نفسه، ص٥١، ٩٨، ١٩٣.

(٢٠) المصدر نفسه، ص٤٣.

(٢١) المصدر نفسه، ص٤٣.

(٢٢)ينظر: جعفر، التأريخ مجاله وفلسفته، ص٦٧–٨٦.

(٢٣)نسبة الاخبار، ص٢٣٨.

(٢٤) المصدر نفسه، ص٢٣٦.

(٢٥) المصدر نفسه، ص٢٣٨.
(٢٦) المصدر نفسه، ص٢٣٦.
(٢٧) المصدر نفسه، ص٢٣٧.
(٢٨) امين، المدرسة المستنصرية، ص٤١
(٢٩)آل ياسين، الحياة الفكرية في العراق، ص٥٤.
(٣٠) تاريخ ابن خلدون، ج٣/ص٥٣٧.
(٣١) ينظر: آل ياسين، الحياة الفكرية في العراق، ص٧٥-٨٠.
(٣٢)ينظر: المرجع نفسه، ص٦٤-٦٦.
(٣٣)نسبة الاخبار، ص٢٣٨.
(٣٤) المصدر نفسه، ص٢٣٨.
(٣٥) المصدر نفسه، ص٢٤٣.
(٣٦) المصدر نفسه، ص٢٣١.
(٣٧) المصدر نفسه، ص٢٤٠.
(٣٨)ينظر: آل ياسين، الحركة الفكرية في العراق، ص١٦٨ ؛ السويطي، تاريخ واسط، ص٨٧-٩٤.
(٣٩) نسبة الاخبار، ص٢٤٠.
(٤٠) المصدر نفسه، ص٢٤٢-٢٤٣.
(٤١) المصدر نفسه، ص٢١٣،١٨٦.
(٤٢) المصدر نفسه، ص٢٤٥.
(٤٣) المصدر نفسه، ٢٤٦.
(٤٤) المصدر نفسه، ص٢١٧.
(٤٥) المصدر نفسه، ص١١١.
(٤٦) المصدر نفسه، ص٢٠٠.
(٤٧) المصدر نفسه، ص٢٠٠.
(٤٨)ينظر: المتقي الهندي، كنز العمال، ج١٤/ص١٤٦.
(٤٩) ابن الصباح، نسبة الاخبار ص١٩١.

قائمة المصادر والمراجع

- الحميري، محمد عبد المنعم(ت٩٠٠هـ)،:

١- الروض المعطار في خبر الاقطار، تحقيق احسان عباس، ط١، مكتبة لبنان(بيروت-١٩٧٥م).

- ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد الحضرمي(ت٨٠٨هـ):

٢- تاريخ إبن خلدون المسمى: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ط٤، دار إحياء التراث العربي(بيروت – د.ت).

- آل ياسين، محمد مفيد:

٣- الحياة الفكرية في العراق، ط١، دار أثراء للنشر(عمان-٢٠١٠م).

- السويطي، محمد حسين علي:

٤- تاريخ واسط دراسة في الحياة الفكرية خلال العصر العباسي ٥٩٠-٦٥٦هـ، ط١، مؤسسة مصر مرتضى للكتاب العراقي(بيروت-٢٠١١م).

- ابن الصباح، عبدالله المدجن الاندلسي(كان حياً ق٩هـ):

٥- نسبة الاخبار وتذكرة الاخيار، تحقيق جمعة شيخة، مجلة دراسات اندلسية، العدد ٤٥-٤٦(تونس-٢٠١١م).

- امين، حسين:

٦- المدرسة المستنصرية عن تاريخ التربية والتعليم في الاسلام، ط٢، دار الشؤون الثقافية العامة(بغداد-٢٠١١م).

- التازي، عبد الهادي:

٧- رحلة الرحلات مكة في مائة رحلة مغربية، مؤسسة الفرقان للتراث(الرياض-٢٠٠٥م).

- جعفر، نوري:

٨- التأريخ مجاله وفلسفته، ط٢، دار الشؤون الثقافية العامة(بغداد-٢٠٠٧م).

- عنان، محمد عبدالله

٩- دولة الاسلام في الاندلس، ط٤، مكتبة الخانجي(القاهرة-١٩٩٧م).

- مصطفى، علوي:

١٠- رحلة المدجن عبدالله بن الصباح دراسة مقارنة، المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية المتوسطية، العدد ٢ لسنة ٢٠١٥م.

- المتقي الهندي، علاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي خان القادري(٩٧٥هـ)،:

١١- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، تحقيق بكري حياني، ط٥، مؤسسة الرسالة(د.م-١٩٨١م).